حبيبتي الفرنسية سامحها الله

في عدد سابق من مجلة أكتوبر نشرت مقالة حول رسالة قديمة تاريخها يولية ١٩٣٤ وصلتني من الأديبة «مي» .. ذكرت فيها أن الوحيد الذي خفق له قلبها وكانت بينهما مراسلات هو «جبران خليل جبران» . وتمنيت أن تنشر هذه الرسائل .. ذلك أن الذين ادعوا أو يدعي عليهم أن صلة كانت بينهم وبين «مي» كثيرون . ولن يكذب هذا الادعاء إلا رسالة تكون قد كتبتها «مي» بخطها إلى هذا الأديب أو ذاك ..

ولم أكن أعرف بالطبع أن رسائل جبران إليها قد نشرت بالفعل .. إلى أن جاءني أخيرا كتاب أنيق الطباعة يضم هذه الرسائل . مع رسالة خطية من ناشرة هذه الرسائل . بعد أن اجتهدت في جمعها وتحقيقها .. وهذه الرسالة من الأديبة «سلمى الخضار الكزبري» كتبت فيها تقول :

«أنا كاتبة سورية من دمشق أقيم في بيروت . وقد درجت على حب الأدب والشغف بالعلم . كما أني من المعجبين بأدب «مي» المقدرين فضلها ..

وهكذا اطلعت على مقالتك الأخيرة في مجلة «أكتوبر» عن «مي» .. أما رسالتها إليك فقد زادتني اعجابا بها .. هلا تكرم وتجيزني بنشر رسالتها إليك ضمن مراسلاتها ؟ .. آمل ألا تهمل رسالتي هذه فتبقى بلا جواب كما حدث لرسالة «مي» إليك . وإن فعلت فلن اعتب . علك تكون منشغلا برومية أخرى تجد الجمال فيها ..»

وها أنذا غير مهمل رسالتك . أرد عليها منشورة غير مرسلة .. لأن النشر لا يكلفني طابع بريد . بل يمدني بأجر النشر . ولعل بذلك أكون قد بينت لك الفرق بين جبران الذي يرفعك برسالته إلى صفاء السماء . وبين الذي ينزل بك إلى مادة الأرض .

ورسالة «مي» هي ملك لك ولكل من يحبها ويعجب بها . فلك إذن أن تفعلي بها ما تشائين . وأما الرومية التي تتصورين أن أكون منشغلا بها اليوم فهو ما أضحكني في رسالتك .. أهو اليوم يقال في ذلك ؟! ألا ليت الشباب يعود يوما ! .. لقد مضى ما يقرب من نصف قرن منذ انتخلت عن «مي» بالرومية الجميلة التي كانت تنزل «البنسيون» الذي كنت من نزلائه .. ومع ذلك . فلنفرض أني فيما مضى اتجهت إلى «مي» بكل جوارحي ورسائلها . فأي نوع من الرسائل كنت اسطر لها ؟ .. إن جبران مؤلف «النبي» كان يخاطبها وكانهما مخلوقان من أهل الجنة السماوية .. لقد كان بينهما حب . وأي حب ! ..

واسمحي لي أن أنشر هنا فقرات من رسالته إليها .. ليعرف القراء ما كان بينهما .. وها هي ذي رسالة منه إليها . ردا على رسالة منها إليه .. كتب لها في عام ١٩٢٣ يقول :

«ما أعذب رسالتك في قلبي . ما أحلاها في قلبي يا «مي» ؟! .. ذهبت إلى البرية منذ خمسة أيام . ولقد صرفت الأيام الخمسة مودعا الطريق الذي أحبه . ورجعت إلى هذا الوادي منذ ساعتين . رجعت مثلجا . مجمدا . ذلك لأني قطعت مسافة أطول من تلك المسافة الكائنة بين الناصرة وبشري في سيارة مكشوفة . ولكن . ولكن رجعت فوجدت رسالتك . وجدتها فوق رابية من الرسائل . وأنت تعلمين أن جميع الرسائل تتضاءل من أمام عيني عندما أتناول رسالة من صغيرتي الغيورة . فجلست وقرأتها مستدفئا بها . ثم أبدلت ثوابي . ثم قرأتها ثانية . ثم ثالثة . ثم قرأتها ولم أقرأ شيئا سواها . وأنا لا أمزج الشراب القديم بعصير آخر .. أنت معي في هذه الساعة . أنت معي يا مي . أنت هنا . هنا . وأنا أحدثك ولكن بأكثر من هذه الكلمات . أحدث قلبك الكبير بلغة أكبر من هذه اللغة . وأنا أعلم أنك تسمعين . أعلم أنا نتفاهم بجلاء ووضوح . وأعلم أننا أقرب من عرش الله ؟ . هذه الليلة مما في أي وقت من ماضينا .. أنت أقرب الناس إلى روحي . وأنت أقرب الناس إلى قلبي .. أحب صغيرتي . غير أني لا أدري بعقلي لماذا أحبها ولا أريد أن أدري بعقلي . بكل أني أحبها . بكل أني أحبها بروحي وقلبي . بكل أني أسند رأسي إلى كتفها كأنها غريبا مسوحدا فرحا بمدوئها مجدوبا . بكل أن سير إلى جانبها نحو قلة الجبل وأن أقول لها بين الأونة والأخرى «أنت رفيقتي» . أنت رفيقتي» . يقولون لي يا مي إني من بين الناس . ويلومني بعضهم لأني أحب جميع الناس . نعم . أحب جميع الناس . أحبهم بدون انتخاب وبدون تفرقة . أحبهم كتلة واحدة . أحبهم لأنهم من روح الله . ولكن لكل قلب قبلة خاصة . لكل قلب وجهة ذاتية يتحول إليها ساعات انفراده . لكل قلب صومعة يخلو فيها ليجد راحته وتعزيته . لكل قلب قلب يشتاق إلى الاتصال به ليتمتع بما في الحياة من البركة والسلامة أو ليتسى ما في الحياة من الألم .. شعرت منذ أعوام بأني وجدت وجهة قلبي . وكان شعوري حقيقة بسيطة واضحة جميلة . لذلك تردت على القديس توما عندما جاء مشككا مستفهما وسوف أتردد على القديس توما وينصر القديس توما حتى يتركنا في خلوتنا السماوية مستسلمين إلى إيماننا السماوي .. ها قد بلغنا ساعة متأخرة من الليل ولم نقل بعد سوى القليل القليل مما نريد أن نقوله . الأفضل أن نتحدث ساكتين حتى الصباح . وعند الصباح سنقف صغيرتي الغيورة معا أمام أعمالنا الكثيرة . وبعد ذلك . بعد انقضاء النهار

ومشاكله . سنعود ونجلس أمام هذا الموقد ونتحدث . والآن قرري حبيبتك . كذا - والله يباركك . والله يحرسك .

جبران

وفي سنة ١٩٢٤ كتب جبران إلى « مي » رسالة يقول لها فيها :

« . . . تقولين إنك تخافين الحب . لماذا تخافينه يا صغيرتي ؟ . . أتخافين نور الشمس ؟ أتخافين مد البحر ؟ أتخافين طلوع الفجر ؟ أتخافين مجيء الربيع ؟ . . . أنا أعلم أن القليل من الحب لا يرضيك . كما أعلم أن القليل من الحب لا يرضيني . أنت وأنا لا نرتوي بالقليل . نحن نريد الكثير . نحن نريد كل شيء . نحن نريد المكان . لا تخافي الحب يا رفيقة قلبي . لا تستسلمي إليه رغم ما فيه من الألم والعذاب والوحشة . والآن قرري حبيبتك . قرري حبيبتك الحلوة . والله يباركك والله يحرسك يا رفيقة قلبي الحبيبة . . .

جبران

وفي ١٧ ديسمبر ١٩٣٠ أرسل جبران إلى « مي » هذه الرقية :

« كنت غائبا ثم تسلمت رسائلك الكريمة العذبة . لا أستطيع الكتابة يد مريضة . هذه رسالة محبة وتمنيات طيبة بمناسبة عيد ميلاد مجيد وسنة جديدة مفعمة بالأناشيد » . . . وفي قول جبران إن يده المريضة لا تستطيع الكتابة قد يكون هذا مبدأ مرض موته . . إذ بعد عام واحد من تاريخ تلك الرقية . أي في سنة ١٩٣١ مات جبران . . .

عاذا نسمي هذا الحب بين حبيبين لم يتقابلا قط . . ويفصل بينهما المحيط والبحر بسعة آلاف ميل !

في وقت ذلك الحب العظيم بين قلبين عظيمين . أين كنت أنا ؟ . . كنت في ذلك الوقت منذ عام ١٩٢٥ في باريس . . أحب فرنسة وأكتب إليها - سامحها الله - هذه الرسالة :

صديقي

لم يعد من حقي أن أناديك بوصف آخر . . فقد أن عاد إليك حبيب قلبك الحقيقي « هنري » بعد يأسك من عودته . ودخل عليك المطعم . في تلك الليلة فهمت أنا من الحال أن ساعاتي عندك أمست معدودة . . آه ياصديقي ! . . لماذا فعلت في ذلك ؟ . . لماذا لم تخبريني منذ اللحظة الأولى . يوم تقابلنا أول مرة . أني لست سوى ملهاة لك وتسرية وتعزية في فترة فراغك من غرامك نحب

جبران خليل جبران

محبوك ؟ ! . لو أني عرفت هذا الوضع فإن كل شيء . ولكن المروع في الأمر أني أخذت كل شيء على محمل الجد . . إن من السهل على عقلية شرقية أن تعيش في الأحلام كما تعيش في الحقائق . وأنها لتأبى أن تؤمن بانهيار الأشياء بمثل هذه السرعة . . لقد كنت أنت من غير شك تعلمين أن هذا كله ليس سوى شيء لن يدوم طويلا . وكنت تعرفين أن إنما أحبك مهولة . فلماذا لم تخبريني أحبك ؟ . . لقد خلقت الأرض صافي النفس في القلب . كما هي كانت الآلهة الشرقية . والهادئة . في الأساطير القديمة . لقد مثل في الأرض . ممثل من الرجال يرقب أعمال البشر من كثب . فإني قد حبيته وسألقاه عن أمرها فقالت إنها راقصة من راقصات المعبد ورقصت له ألف رقصة ورقصة . ثم ركعت أمامه

وقدمت له أزهارا . وكشفت له عن قلب نادر نبيل . وعاشا في سعادة الأرض . الزمن الذي تسمح به سعادة الأرض . .

وذات صباح استيقظت الفتاة فوجدت حبيبها إلى جانبها ميتا . . فبكته بكاء مرا . وجاء الناس وأحرقوه كما يفعل الهنود موتاهم . فأسرعت الفتاة وألقت بنفسها إلى جانبه في اللهب . فأصعدها معه إلى السماء . . تلك قصة الفتاة الشرقية . أما الفتاة الأوروبية اليوم فإنها أعقل من أن تلقي بنفسها في اللهب من أجل الذي تحب . أما من لا تحب فهي تعرف كيف تجعله هو الحطب الذي يلقى به في اللهب كي ينشر الحرارة في بيتها المعطى بالجليد . .

لا شك ياصديقي أن ربحا باردة كانت قد هبت على ماكان بينك وبين حبيبك مسيو « هنري » . وكان قلبك يومئذ في حاجة إلى الدفء . وكان ينبغي أن أعرف أن المكان المعد لي إنما هو المدفأة . وأن هذا الوقود الحي ينبغي أن يبقى حتى يحترق ليدفئ قلبك . . ثم يصبح رمادا وتنهي مهمته . فتعكس ذراته وتطرح في الهواء . . لست أحب ياصديقي أن انهمك بالأثاثية . ولكني كنت أود أن تخبريني بمهمتي حتى أحترق على علم . وأقنع الغير عن رضا . . لا تظني أني حانق عليك . على النقيض . . إن من حقك أن تصنعي في ما صنعت . . إنما الذي يؤلمني الآن هو حياتي أنا بعد ذلك . لقد أسرفت في الخيال . فجعلت منك كل شيء . . إني أعرفك الآن موقف آدم عقب إخراجه من جنة السماء . . أتخيله قد مكث هناك في الموضع الذي هبط فيه . يشرع في مكانه بين اليأس والرجاء . ويمسح وجهه بأعناب النعيم الذي خرج منه . وبعد فإني أطلقت عليك . وليس من حق الآن أن اسلبك وقتك السعيد لتطالعي هذيان شخص كمني . . اقرئي خطابي هذا في ساعة فراغك . واعتبريه نوعا من لهوك . وهو على كل حال صائر هو أيضا إلى المدفأة . . . »

وهكذا رأيت أن الجمع إلى جانب رسائل جبران المكتوبة بندى الحب السماوي . رسائلي هذه التي تذكرني بأني عشت أجمل أعوام حياتي ولم أعرف وجودا للحب الحقيقي . . ولا لقلبين كقلب « جبران » وقلب « مي » . . ولقد مات هو وفي قلبه الصامت حبها . وماتت هي بعده بسنوات وقلبها غير ممتلئ بأحد غيره . . .

طوبى لكما في دار « الخلد » يامن قد منا من قلبكما للبشر قبسا من نور السماء . . .

◄ الأسبوع في زيادة . .